سؤال الحياة في فكر نيتشه

قادم معمر*

إشراف: أد. بوشيبة محمد- جامعة وهران 2

*****

مقدمة:

يعتقد كثير من الباحثين أنَّ فلسفة نيتشه(Friedrich Nietzsche 1844-1900) تمثل أنموذج فلسفة الحياة، ذلك أن سؤال الحياة فيها كان بمثابة القضية المركزية التي انبثقت منها أغلب الأسئلة الجوهرية في فلسفته، ويمكن أن نتبيّن ذلك من خلال حضور الحياة بما هي تأويل جديد في منظور مغاير، أسّس لفسفة مابعد المفهوم، إذ لم يعد المهمّ في نظره بحث مفهوم الحياة بقدر ما أصبح يعنيه بحث كيف نحيا في كنفِ هذه الحياة باقتدار وتميّز؟ تلك هي الإشكالية التي نلمس حضورها في جلّ مؤلفات نيتشه، حيث حملت في العمق مقولاته المركزية التي عبّرت بقوة عن منظوره الجديد للحياة، ومن ثمة يمكن إدراك أن فلسفة الحياة النيتشوية قد تبلورت بوضوح من خلال معالجته لمقولات العدمية وإرادة القوة والعود الأبدي والإنسان الأعلى...الخ، ففي ثنايا بحثه العميق لمجمل هذه الموضوعات المتشعّبة نجد نظرة فاحصة ناقدة لمجمل ما كان سائدا من تصورات ونظريات عن الحياة، ولم يكن يبغي من وراء ذلك غير إعادة بناء الإنسان من جديد، أي الإنسان الذي يؤمن بالحياة ولا يعاديها، ولا يكون ذلك إلاّ إذا تمّ إعادة بناء الحياة من جديد وعلى أسس جديدة مغايرة تماما للتصورات التقليدية التي أذهبت بريق الحياة أو كادت تذهبه بما فرضته من أوهام وخرافات -الدين والعقلانية والمثالية ..-، ساهمت إلى حدّ بعيد في بروز الأزمات التي أصبحت تتهدّد الإنسان المعاصر في كيانه ووجوده ذاته.

لقد أساءت تلك التصورات فهم الحياة، وما ذلك إلاّ لكونها حاولت الفهم المجرّد ،أو الفهم للفهم ذاته، ومن ثم أسّست لسؤال الحياة بما هو بحث في عالم العقلانيات والمثل، أو كما ل كان أرضية للتنافس المعرفي والتعقيل وحتى الرهبنة والتديّن ،في حين أن التأويل النيتشوي للحياة يرمي إلى الولوج داخل المجال الحيوي الذي نعيش فيه، أي إلى الحياة كمجال عيش

---

* طالب دكتوراه، وعضو في مختبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر – جامعة وهران2.

Abstract: : the question of life is one of the most important question posed the philosophy of Nietzsche in particular ،and we can confirm this thesis by tracking the core issues addressed by Nietzsche in his philosophy ،and we mean specifically deep his research about nihilism issues ،and the will power ،the eternal return ،human top ،these are the core issue raised by Nietzsche ،and the clear confirmation of the importance enjoyed by the question of life when Nietzsche ،were we find that Nietzsche believed that religion it is the primary factor in the degeneration of life in processes ،and so must destroy all that is religious or rational or an ideal ،that is the only way to achieve life virtually earth ،so the opposite has happened and everything became an expression of body and instinct ، that is life as it is.

Keywords: philosophy ، religion ، Nietzsche ، will power ، nihilism ، the sunset of life.

"هنا" وفي هذا العالم الأرضي، وبعيدا قدر الإمكان عن كل ما يوحي بوجود عالم آخر – ميتافيزيقي أو مثالي يمكنه أن يكون بديلا لعالمنا الذي نعيش فيه- جاءت فلسفة الحياة النيتشوية لتقلب المعادلة الأفلاطونية الكانطية وحتى الدينية في إطار تصور جديد للحياة مغاير لكل التصورات السابقة لها، فما طبيعة التصور النيتشوي للحياة ؟وكيف عالج نيتشه سؤال الحياة؟أو بعبارة أخرى كيف تَأوّل نيتشه سؤال الحياة ؟

1- التصور النيتشوي للحياة:

أ-**التعريف اللغوي للحياة:** (vie، life): الحياة في اللغة نقيض الموت، وهي النمو، والبقاء والمنفعة، والحيّ من كل شيئ نقيض الميت، والحي أيضا كل متكلم ناطق، ولذلك فسّروا قوله تعالى: "*وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ*"، بقولهم: الحي هو المؤمن والميت هو الكافر، ومن قُتل في سبيل الله لا يُقال عنه ميّت بل هو شهيد، وهو عند الله حيّ، ويقال أيضا ليس لفلان حياة، أي ليس عنده نفع ولا خير[1].

ب- **التعريف الاصطلاحي:** هي "بالمعنى الأوسع كل مجموعة ظواهر نرى فيها، أو نظن أننا نرى فيها سمات الحياة ،أي كفعالية تنظيم ،الحفاظ على صورة معينة، مديدة نسبيا ،على الرغم من التجديد المتواصل لمادتها، من تجديد لا رجوع عنه إلى تكيف مع الظروف الخارجية (حياة الروح الحياة الأخلاقية ...)"[2] و"بالمعنى الأدق فهي تعني مجموعة ظواهر تظهرها بعض الأجسام، ويكون الغذاء جوهرها"[3]، أما " الاستعمال الأخلاقي لكلمة "حياة " مع ما يثيره من شعور فقد كان مألوفا في الأدب الفرنسي من خلال الكلام على حياة النفس وحياة الزهد، والحياة الزوجية ...إلخ"[4]. ومن المفاهيم البارزة لكلمة "حياة " يمكن التذكير بالتفريق الذي أجراه "مين دو بيران"Maine de Beran (1766-1924) بين الحيوات الثلاث التي تتراكب لدى الإنسان:

-"الحياة الحيوانية التي تمتاز بالانطباعات والشهوات والحركات.

- الحياة البشرية الناجمة عن ظهور الإرادة الحرة ووعي الذات .

-حياة الروح التي تبدأ منذ انعتاق النفس من نير الغرائز الدنيا وتوجهها نحو الله الذي تجد فيه قوتها وراحتها "[5].

ج- الحياة في المنظور النيتشوي:

إن الباحث في أغلب المؤلفات النيتشوية يدرك أن نيتشه لم يكن ليُعنى أو ليشتغل على الضبط الأكاديمي لتعريف الحياة[6]، فذاك ما كان قد انتقده بشدة لدى الفلسفات السابقة،

---

[1] صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (د ط)، 1982، ص ص 502، 503.

[2] لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، مج1، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 2001، ص ص 1548-1549.

[3] المرجع نفسه ،ص 1549

[4] المرجع نفسه ،ص 1548.

[5] المرجع نفسه، ص 1548-1549.

[6] رفض نيتشه تقديم تعريف للحياة باعتبارها ليست موضوعا للمعرفة، وذلك تحديدا ما يعيبه على روح العصر، حيث غلب عليها الطابع المعرفي، وهذا في حدّ ذاته مشكلة حسب نيتشه، ومن ثمّة نجده أكثر العصور مرضا لأنه لما زاد الطابع المعرفي زاد مرض العصر.

لكننا مع ذلك نجد أن تصوره أو تأويلاته للحياة واضحة في فلسفته التي استهدفت في المقام الأول إعادة المعنى والقيمة للحياة نفسها، ولعل ذلك هو ما أَتاحَ لنا إمكانية تتبع تطور منظوره للحياة وبيان مدى أصالته وجِدّته من الناحية الفلسفية. يعتقد نيتشه أن الحياة "حقيقة مطلقة وإقبال لا متناهي على حب الأرض، إن الحياة هي تمجيد الأرض وممارسة لفعل « الإنْوجَاد » على أرض الموجود"[1]، ولعلّ في هذا ما يوحي لنا أن نيتشه كان مهُوسا بحب الحياة، لكن الحياة "هنا" أرضية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو ناقم على التصورات التي يكون تمجيدها لغير هذه الأرض التي نحيا عليها ونوجد، ولا يتسنّى للإنسان مواجهة الحياة ولا التكيّف معها بمجرّد تساؤلات ساذجة تستهدف المفهوم أو القيمة –قيمة الحياة فذلك من شأنه أن يصرف الإنسان تماما عن جوهر الحياة، وعن الحياة في صميمها، فلا مناص للإنسان حينئذ من قلب أسئلته باتجاه الإنسان والحياة معا ليدرك مدى جدارته بالحياة ؟ ومدى تحمل الحياة له؟

ولعلّ من شأن هذه التساؤلات المبدئية أن تحيلنا إلى حقيقة التأويل النيتشوي الجديد للحياة، وهو تأويل مغاير لما كان سائدا من قبل، حيث تجنّب نيتشه "قدر الإمكان إقناعنا به بواسطة الطرق الفكرية أو المنطقية ،خاصة وهو الذي يجعل من الحياة تجربة نحياها أكثر ممّا هي موضوع علم ومعرفة ...، الحياة في نظره لا يمكن إلا أن تكون هدفا في ذاتها لا مجرد وسيلة لشيء آخر خارج ذاتها، والشيء الداخلي الذي يحركها هو القوة، ولكن هذه القوة تكون في حالة تطور ونمو ،فتصبح الحياة هي التعبير عن أشكال هذا النمو والقوة"[2]، وحيث هي كذلك فنحن هنا بإزاء تصور دينامي جديد للحياة ،تصور يُعلي من شأن هذه الحياة التي نحياها ونعيشها بكل أحاسيسنا وغرائزنا، كذلك بكل ما يكتنفها ويخالجها من متجانسات ومتناقضات على حد سواء، إنها تجربة يغمرها الفرح كما الألم، وما علينا إلاّ أن نجد لها ما يستوعبها ويعلو عليها في الآن نفسه، لكن مع التواجد دوما داخل الحياة نفسها.

هذا، وقد ارتبطت الحياة عند نيتشه بالغريزة والقوة كتعبير منه عن رفض الطرح التقليدي الذي تأسّس على نبْذ الجسد ومعاداة الغريزة، وعلى النقيض من ذلك يؤكد نيتشه على معنى الغريزة والقوة بما هما يمثّلان العنوان الجديد للحياة ،حيث تتجسّد فعليا " غريزة النمو الديمومة واكتمال القوى والتي يسميها "غريزة القوة" وهذه الغريزة تتعطل حيث يكون ثمّة موت واضمحلال"[3].

وهكذا يبدو أن هاجس نيتشه الأول هو أن تضعف الحياة أو تضمحل ، فعندما نقصي الجسد والقوة فإننا لا محالة نُعلِي من شأن الروح والوهن، ونحن بذلك إنما نمهّد الطريق أمام

أنظر: عطية، أحمد عبد الحليم، فلسفة القيم –نماذج نيتشوية – دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2010، ص 19.

[1] هشامبن دوخة، نيتشه والمتوسط، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013، ص 22.

[2] أحمد عبد الحليم، عطية، فلسفة القيم –نماذج نيتشوية – دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2010، ص 25-26.

[3] المرجع نفسه، ص 25

الأفول المزمن لكل ما يجسد بعمق معنى الحياة الراقية، لتفتح الآفاق واسعة أمام الحياة البائسة الضعيفة .

ولأجل تفادي الوقوع في هذه الأزمة التي تكاد ترهن حاضر الإنسان ومصيره، وجّه نيتشه الإنسان إلى ضرورة إثبات الوجود في الحياة من خلال السّبيل الوحيد المتمثل –حسبه – في التعلُّق والتّوق اللاّمتناهي للحياة بما هي غريزة وقوة، وحيث هي كذلك، فهي تمثّل "نزوعا نحو السيطرة ،إذ أنها في وظيفتها الأساسية تستلزم ضرورة العنف والاستغلال والهدم، وهي لا تقبل أن نفكر فيها إلاّ على هذا النحو ،لذلك فهي نوع من التوازن بين القوى، وهذا التوازن لا يتحقق إلاّ بأفعال السيطرة"[1]، لكن ما هو موضوع السيطرة؟ وما موضوع العنف والاستغلال؟ لابد أن يكون المجال الذي تعمل فيه القوة هو دوما باتجاه الضعف والاضمحلال، أي أن نحطم كل ما ينزع باتجاه الموت والأفول، أن نعمل بكل قوة على تحطيم كل ما من شأنه أن يبعدنا عن صميم الحياة التي نريد، ولسنا نريد – على – حسب نيتشه – غير أن نعيش هذه الحياة، فلم تعُد تُطيق أحمالا أكثر ممّا حُمّلت، وعيه صار أكيدا أن معنى الحياة "أن نطرد بلا هوادة خارج ذواتنا كل شيء ينزع إلى الموت، أن نرفض في ذواتنا كل ما هو ضعف وتهرّم"[2]، تلك معايير أولية لابد منها للحياة الصاعدة ،الحياة المليئة التي تتوق إلى التوسع والانتشار، لا الحياة المغمورة التي تسير في عماء إلى حتفها.

وانطلاقا من هذا التحليل- المتواضع- يتبيّن لنا أن نيتشه يميّز بين نوعين من الحياة، أما الأولى فهي الحياة المنحطة الآفلة، أما الثانية فهي الحياة الصاعدة القوية، وهذا ما سنحاول بيانه فيما يلي:

2- **أفول الحياة:**

سنبدأ الحديث عن أفول الحياة بالتساؤل التالي: كيف سارت الحياة إلى غروب أو أفول ؟ وما هي تجلّيات ومظاهر الحياة الآفلة؟

إن الحديث عن الحياة الآفلة يُحيلنا بالضرورة إلى أزمة القيم التي مسّت في العمق إنسان الحضارة الغربية الحديثة، حيث سادت العدمية*[3] وأحكمت قبضتها على جميع مفاصل الحياة، بعد أن ساد الكهنوت واستفحلت المثالية، ليبدأ المسير بخطوات متسارعة نحو الانحطاط والتدهور، وحينئذ لم يعد الحديث سوى عن إنسان عدمي تضايف وحضارته بالسّير إلى حتفه الحتمي.

---

[1] المرجع نفسه، ص 24

[2] المرجع نفسه، ص 23.

* العدمية (nihilisme) وهو مشتق من اللفظ اللاتيني (nihil) ومعناه لا شيء وهي ترد في الفلسفة بمعنيين، أما الأول فيشير إلى العدمية الفلسفية المطلقة، وتعبّر عن إنكار وجود كل شيء ،أما الثاني فيشير إلى العدمية الفلسفية النقدية، ويعبّر عن إنكار قدرة على الوصول إلى الحقيقة (أنظر: صليبا،جميل، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت ،(د ط)، 1980، ص 64.)

[3] دولوز، جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1 ،2001 ،ص 189.

إن الحياة تأخذ قيمة عدم "بمقدار ما يجري نفيها والحط من قيمتها ،عندئذ تصبح الحياة كلّها وهمية"[1]، وحيث هي كذلك فقد أصبح الإنسان ينظر من منظار أسود إلى حياة بلا قيمة، وبلا معنى، وذلك ما يتجسّد بوضوح في "التأويل المثالي للوجود الذي ينتقص من قيمة الطبيعة والتجربة باختلاق عالم فوق طبيعي ،أصبح في الحقيقة تقديرا فاسدا تحرّكه غريزة حاقدة تتجه نحو إفساد كل ما هو طبيعي وإثباتي"[2]، وبالتالي سلب الحياة قيمتها ومعناها بعد أن أصبحت الدعوة صريحة للانسحاب الكلي منها عبر مقولة التّوق إلى العالم الآخر.

هذا، وسيكون في تمرد الإنسان على الحياة أو إدانتها معنى حلول الزيف والعبثية ،حيث تشير هذه الأخيرة إلى الرجل الإنكاري "الذي يحكم على العالم كما هو بأنه من الواجب ألاّ يوجد، وعلى العالم كما يجب أن يكون بأنه غير موجود، والنتيجة تبعا لهذا ،هي أن الوجود لا معنى له "[3]، فلا معنى للحياة، ولا قيمة حينئذ لوجود اكتسحته العدمية ونخرته في الصّميم، فكان الخلاص الوحيد من عبثية هذا الوجود وبالتالي من الحياة هو الغروب عنها أو الانسحاب الكلي منها.

إذن ،فنحن -حسب نيتشه- عندما نعتبر الحياة بلا قيمة وبلا معنى ،فإن هذه الحياة تنتفي وتضمحلّ حتى أن " الأقوياء والسعداء يصبحون ضعفاء عندما يجدون أنفسهم في مواجهة غرائز القطيع المنظمة وجبن الضعفاء وكثرة العدد"[4]، ونتيجة ذلك فقد حدث القلب اللاّفعّال بتحول القوى الفاعلة إلى قوى منفعلة، وبدل الفعل تتحول إلى مجرّد ردّ الفعل إلى أن تصل إلى مرحلة الانطفاء التام، ولعلّ ذلك ما أراده نيتشه بقوله: "إما أن تلغوا احترامكم للأشياء المقدّسة، إما أن تلغوا أنفسكم أنتم! العبارة الأخيرة هي العدمية، لكن الأولى، ألن تكون هي كذلك العدمية ؟"[5]، تلك هي حالة من غياب المعنى القيمة انتهينا إليها، ولم يعد في وسعنا أن نرى في الأفق سوى ظلاما دامسا تعذّر كشفه، ولم نجد بُدّا من الولوج إلى أعماقه حيث الحياة السحيقة المنحطة.

وعلى هذا الأساس شخّص نيتشه الداء – العدمية – وحدّد أبرز العوامل والأسباب التي أدت إليه، ومن ثمّة بيّن آليات الوقاية والعلاج، فذهب إلى أن الدين وتقديس العقل كانا أحد أبرز العوامل التي أدّت إلى الاكفهرار والنُّحول الذي أصاب الحياة، ولذلك نجده يرفض كل القيم التي قدّستها الإنسانية عبر تاريخها الطويل "تتساوى في هذه القيم، التي تقوم على أساس

[1] دولوز، جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2001، ص 189.

[2] Sara ، Kofman ، Nietzche et la scène philosophique ، union générale d'édition ، paris ، 1979 ، p 22.

[3] بدوي، عبد الرحمن، نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 5، 1975، ص 158.

[4] نيتشه، فريدريك، نيتشه وإرادة القوة، ترجمة: جمال مفرج، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص 147.

[5] نيتشه، فريدريك، العلم المرح،ترجمة: حسان بورقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د ط ت)، ف 364، ص 209.

عقلي والتي تقوم على أساس لاهوتي كهنوتي ... وشنّ عليها حربا لا هوادة فيها"[1] باعتبارها مجرّد أصنام أو أوثان قدّستها الإنسانية في زمن سكون الحياة.

وهكذا فقد انصبّ النقد النيتشوي على الدّين الذي أقصى الحياة، وعلى السلطة الكهنوتية التي غيّبت الإنسان بإقصائها الحياة الأرضية، والتي ما كان لها أن تتبوّأ تلك المكانة ولا تلك القداسة والعَلياء لولا أنها أرهبت عبيدها ومريديها من خلال التأويل المقلوب لحقائق الأشياء "هذا التأويل باعتباره العداء الموجّه إلى الفعل هو حيلة رجل الدين في إحداث التحولات على المفاهيم الإلهية...يعكس تراتب القيم وتنظيم تقييمات الضعفاء ومنحها سلطة إلهية من أجل تقوية ضعف المرضى وتحويل قوة الارستقراطي إلى مرض، وفي الوقت ذاته المحافظة على التفوق الترابي للطبقة الكهنوتية"[2]، تلك الطبقة التي أسّست لعصر يسوده الضعفاء والعبيد، وبعبارة أخرى الإنسان الإرتكاسي[3] الذي يمجّد الرتابة والجمود ويكتفي بردّ الفعل بدل الفعل حتى صار أسيرا مكبّلا ليس له إلاّ الانصياع والطاعة في سبيل السعادة في الحياة الأخرى، ولذلك يمكن فهم مسوّغ رفض نيتشه المطلق لتلك التصورات التي تنكر الحياة وتعاديها، لأنها مجرّد أقنعة لامعة أو "حقائق مرعبة يديرها مخادعون ومنافقون من أجل الإيقاع بالإنسانية وإيهامها بوجود عوالم أخرى أفضل من العالم الأرضي"[4]، لكن الصواب-حسب نيتشه- هو الدفع بهم إلى التعلق بالحياة وليس النفور منها إلى حياة تخاف من الحياة ذاتها.

لقد صارت الحياة جحيما لا يطاق وأصبح الإنسان شاحبا نحيلا عندما سقط فعليا في "قبضة أسوء الأيدي، وأنه محكوم من جانب غير المناسبين والحمقى ورجال الخداع والانتقام، من يسمون أنفسهم بالقديسين، أولئك الذين يشوهون العالم، والذين يطعنون الإنسانية "[5]، فذلك ما أسّسوا له، وذلك ما دافعوا عنه باستماتة، ولم يكن في النهاية غير إنسان منحط، ولم تكن تلك المرحلة سوى بداية النهاية، حيث تشكّلت جميع العوامل والظروف التي تنبئ بحلول عصر التدهور والانحطاط، أي زمن السحرة والكهنة الذين "عوض أن يُخرجوا العالم من العدم، يُخرجون من العالم عدما"[6]، كذلك كان مآل الإنسان إلى غروب بما هو قد انتكس إلى " " عصر حضارته مهدّدة كلّيا بالتدمير من طرف وسائلها نفسها"[7]، وبعبارة أخرى ستفنى هذه الحضارة وسيفنى معها كل ما يرمز للحياة، لأنها حملت في طيّاتها بذور فنائها ،حيث أن تقديس الإنسانية لتلك الأصنام -في الدين، العقل ،الأخلاق – كان ذاته معول هدم، أو نذير شؤم بأفول

[1] يسري، إبراهيم، فلسفة الأخلاق، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د ط) 2007، ص 190.

[2] Sara kofman ، Nietzche et la métaphore ، édition Payot ، 1979 ، édition galillé (s.1) ، 1982 ، p 82.

[3] الارتكاسية هي اصطلاح فلسفي استخدمه جيل دولوز للدلالة على عدمية ردّ الفعل، حيث تمثّل عجز الإنسان عن الفعل، وعلى ذلك يُعبّر عن القوى الارتكاسية بالقوى المفعول بها (أنظر: دولوز جيل نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص 110)

[4] عطية، أحمد عبد الحليم، المرجع السابق، ص 09 -10

[5] نيتشه، فريدريك، هذا الإنسان، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت، (د ط ت) ،ف 08، ص 163.

[6] نيتشه، فريدريك، إنسان مفرط في إنسانيته، ج1، ترجمة: محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د ط)، 1989، ص 239.

[7] نيتشه، فريدريك، المرجع نفسه، ف 555، ص 244.

مزمن لكل ما من شأنه أن يُعلي من شأن الحياة "هنا" وفي الوقت نفسه بشارة سوء بوجود عالم مثالي متعالي، لكنه في حقيقته ليس سوى أوهام زائفة في أذهان من صنعوه وقدّسوه من الكهنة ورجال الدين.

هذا، وقد كانت النتيجة المؤلمة أن اتجه الرّعاع – القطيع أو العبيد-الذين خلقهم الكهنة إلى تمجيد ما يؤول إلى التدهور أو الغروب ،فراحوا يخلقون قيما جديدة ليست من أصل الحياة بل وتقصيها وتجعل منها عبئا ثقيلا لا يُحتمل كقيم الصبر والتواضع ،العدل والمساواة، الشفقة والزهد ...الخ، حينئذ تمّ بالفعل خلق عالم جديد، لكنه لا يحمل أيّ قيمة أو أيّ معنى، إنه عالم مليء بالكراهية والحقد على كل رموز الحياة بإقصاء الجسد واستبعاد الغرائز الحيوية بدعوى أنها دنس أو أنها لا تساوي شيئا، وحيث هي كذلك فلا مناص من أن يقول: "الضعيف فاتر الهمّة أن الحياة لا تساوي شيئا، وخير له أن يقول إنّني لا أساوي شيئا ،لقد فقدت الحياة قيمتها عندما تخلينا عن أخلاق البطولة، وأخذنا بمبادئ المساواة والديمقراطية التي تكفر بعظماء الرجال"[1].

إن الحضارة البائدة والحياة الآفلة أو التي توشك على الأفول هي تحديدا تلك الحياة التي تلبّست بالأوثان –في الدين، العقل، الأخلاق، السياسة – والأوهام التي خلقها الإنسان وآمن بها وقدّسها، ثمّ ما لبث أن صار عبدا ذليلا لها.

وفي ظل التدهور المتسارع لجميع القيم والرّاهن المؤلم الذي آلت إليه حياة الإنسان حقّ لنا التساؤل مع نيتشه حول سبيل الخلاص وآليات التجاوز، وبصورة أدق:كيف يمكن تجاوز هذا السكون؟ وكيف يمكن إعادة بعث الحياة من جديد؟

3- انبعاث الحياة من جديد:

يبدو أن الحل الذي تبنّاه نيتشه لتجاوز أزمة غياب المعنى والقيمة، وبالتالي الخروج من حالة السكون الرهيب الذي خيّم على أرجاء الحياة فأفضى بها إلى الأفول، يتمثّل في ضرورة الشروع في عملية الهدم كمقدمة للبناء، أي أن نبدأ بهدم كل ما تمّ تقديسه سابقا كمرحلة ضرورية لإعادة بناء الحياة على أسس جديدة "فمن أراد أن يكون مبدعا سواء أكان في الخير أم في الشر، فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره، وبتحطيمه تحطيما"[2].

وانطلاقا من هذا فإثبات الحياة والعلاء بها يقتضي أولا الإبداع، أي أن يكون الإنسان مبدعا، وحيث هو كذلك، يتوجب عليه أن يدمّر بلا انقطاع حتى وإن كان يُعتبر عدوا في أعين الرعاع والعبيد الذين يعتقدون دوما بعداوة "من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم، ذلك هو الهدّام، ذلك هو المجرم ،غير أنه هو المبدع"[3]، وعليه ينبغي قلب المعادلة القيمية لتحريك

[1] ديورانت، ول، قصة الفلسفة، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط5، 1988، ص 529.
[2] نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مطبعة جريدة النصر، الإسكندرية، (د ط)، 1938، ف الانتصار على الذات، ص 98.
[3] نيتشه، فريدريك المرجع نفسه، ف 09، ص 15 .

مياه الحياة الراكدة، وتحريكها يدفع إلى الإبداع الذي يمرّ حتما عبر تحطيم الجسور التي بناها الضعفاء المنحطون، فقد كانت في الأصل جسور متهاوية لم تستطع مقاومة قوة الرياح العاتية التي حملتها روح الحياة الجديدة التي أرادها نيتشه.

إن الإبداع عند نيتشه هو حتمية اقتضتها طبيعة الإنسان التي تمّ هجرها أو نفيها في زمن السكون، وهو نتيجة لازمة عن تلك الحركة النقدية - التدميرية - التي اقتضت ذلك الصراع مع قوى النفي، وحيث لا يُعبّر الخلق -الإبداع- فقط عن قوى فاعلة، فإنه تجسيد لجملة العلاقات بين القوى المتضادة، وبما هي كذلك فستكون الغلبة لقوى الإثبات أي إثبات الحياة، على قوى النفي أي ما ينفي الحياة أو يؤدي إلى انتفاءها، لكن مع ذلك لا يمكن فصل "الإثبات عن شرط أولي هو النفي، خاصة وأن الإبداع يقترن بالتدمير الفاعل ،لذلك فإن أحد الشروط الأساسية للإثبات هو النفي والتدمير بما يحملانه من معاني التخليص والتحرير، تحرير الحياة من أثقالها وأوزارها... والبحث لها عن قيم جديدة تجعل من الحياة أكثر خفّة وفاعلية ،إن من معاني الإثبات هو اختراع أشكال جديدة للحياة"[1]، وهي ليست إلاّ أشكالا تثبّت الوجود الإنساني على أرضه وتغمره فرحا وطموحا، وبالتالي ستعمّق الهوّة بينه وبين ما كان علّة للأحقاد التي كانت تسكنه من جرّاء ما بثّته فيه الأديان من أوهام باطلة.

والإبداع في المنظور النيتشوي يعني الخلق، حيث يكون في الإمكان القدرة على خلق عالم جديد، وبقيم جديدة، ولا يكون ذلك إلاّ بالاستثمار في الرغبة الملحة التي تسكُن الإنسان بما هو الخالق المبدع باستمرار، والتي تجعله ينزع دوما إلى تجاوز ذاته، لكن داخل الحياة ذاتها، ومن ثمّ فهو يعني خلق ما يجعلنا نتعلّق بالحياة لا أن نحتقرها، وأن نسمو بالغريزة لا أن ننبذها، ويلزم عن هذا أن يكون الإبداع باتجاه الأرض، ومن منبع حيوي مَعِينْ، لا أن يكون مثاليا ولا سماويا أو إلهيا، بل سيكون أرضيا إنسانيا، كما لا يكون مردُّه إلى العقل ولا الروح بل هي الغريزة والجسد، فذاك ما ينشده نيتشه ليكون أساسا لقيم الحياة الجديدة.

هذا، ويقتضي الإبداع امتلاك إرادة القوة باعتبارها تمثّل العمق الأكثر حيوية في ميتافيزيقا الحياة النيتشوية، ذلك أنه "أطلق على كل ما يوجد وجودا حقيقيا اسم الحياة، ورأى أنه حيثما توجد الحياة توجد إرادة القوة"[2]، ولما كان الجسد هو رمز القوة، وكانت كل حياة تتجلّى من خلال الإرادة ،فإن كل إرادة هي في جوهرها إرادة قوة بما هي التعبير الأمثل عن حقيقة الإنسان، ولذلك شملت تجلّياتها كل ما هو مفعم بالغرائز والحيوية، وحيث هي كذلك فالكون برُمته تعبير عن إرادة القوة ،أي إرادة امتلاء وعلاء، أو إرادة ارتقاء بالحياة إلى أسمى صورها الممكنة.

[1] عطية، أحمد عبد الحليم ،المرجع السابق، ص 61.
[2] يسري، إبراهيم، المرجع السابق، ص 234.

وبناءً على هذا، فإن أرقى إرادة للحياة لا تتجسّد إلاّ من خلال إرادة القوة، حيث تتجلى بوضوح في النزوع نحو السيطرة والعلاء، وهي في الوقت نفسه تأبى الخنوع أو الرّضوخ، فالإنسان الذي يبتغي العلاء والكمال محكوم بالممارسة الفعلية للإرادة التي تحوي في ذاتها ما يمكّنه من الصمود الأبدي، حيث يعلو ما لا يمكن للدهر أن يبدّده، ويُبقي الإنسان حيّا فتيّا تغمره سعادة الفرح بآماله وطموحاته اللّانهائية، ذلك أن "إرادة القوة هي الجوهر الأعمق للموجود، من حيث أن كل موجود يسعى إلى مجاوزة ذاته"[1]، على أن هذا التجاوز ليس تجاوز يفضي به إلى علاء مثالي أو سماوي وإنما هو تجاوز يتمُّ داخل الحياة الأرضية المفعمة بالقوة والغرائز الحيوية.

وتبعا لهذا، فغاية الحياة هي أن نحياها، وأن نحياها معناه أن نتُوق باستمرار إلى الارتقاء من الدّركات إلى الدرجات، ثم من درجة إلى ما هو أعلى وأسمى، حيث تسمو الحياة بنفسها على نفسها، ولعلّ في عبارة " الحياة تعلو بنفسها على نفسها تلخيص تام لكل فلسفة في الوجود، ومنها نستطيع أن نستخلص كل ما قال به من أفكار، وذلك أن أفكار نيتشه ونظريته في الوجود تقوم على أساسين: الأول إرادة القوة وهي موجودة هنا في العلاء، والثاني أن الحياة هي الوجود الحقيقي كلّهولا وجود غيرها"[2]، ومن ثم فلا وجود لحياة إلاّ الحياة التي نحياها "هنا" ولا لوجود إلاّ الوجود "هنا" وتلك هي الحقيقة الكبرى، أما ما عداها فهو مجرّد أوهام وخرافات تثقل كاهل الإنسان وتسقطه في غياهب العدمية أو الأفول المزمن للحياة.

إن فلسفة الحياة النيتشوية هي فلسفة القلب بامتياز، حيث يجري قلب شرائع الألواح القيمية، وحيث القلب هو وسيلة ومظهر من مظاهر الإبداع فسيكون فيه ما يجسّد شرائع الأرض بدل شرائع السماء وشرائع الجسد والغريزة بدل شرائع العقل والروح وأخيرا شرائع الإنسان بدل شرائع الإله حتى تكون الحياة بالإنسان وللإنسان ويكون الوجود برمته إنسانيا خالصا.

وعلى هذا الأساس فما كان يجري سابقا إثباته وتبريره سيجري الآن نفيه بكل قوة وستكون عملية "قلب القيم والحط من قيمة القيم الإرتكاسية وإرساء قيم فاعلة، إنما هي عمليات تفترض تحويل القيم ،تغيير النافي إلى إثبات"[3]، وبالتالي فما كان يجري نفيه واقتلاعه من على الأرض فهذا الأوان قد حلّ لإثباته والعلاء به، تلك هي الخارطة التي تتحدّد من خلالها فلسفة الحياة النيتشوية، حيث أسّست للإنسان المبدع بما يمتلك من القدرة على الخلق، ولإرادة الحياة بما هي إرادة القوة، وحيث هي كذلك فإنها ستضيء بنورها تلك الأرجاء المظلمة من الوجود، وسيصبح للحياة معنى وقيمة، ومعناها يشمل كل ما يجسّد الإرادة المشحونة بالغرائز

[1] قادة، نبيهة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1998، ص 30.
[2] بدوي، عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 124.
[3] دولوو، جيل، المرجع السابق، ص 222.

الحيوية، وبمزيد من القوة التي تفضي إلى الخلق والإبداع بما هو السّمة المميّزة للإنسان الجديد، أي الإنسان القادر على خلق نماذج جديدة للحياة تعلو النماذج الآفلة.

لكن هذه الحياة الجديدة التي نبتغيها لا تقوم إلاّ إذا أمكن لها تجاوز ذاتها بذاتها، وحينئذ فلا مناص لها عن النزوع الدائم للهدم نزوعها للبناء ،فلا سبيل للبناء والإبداع إلاّ عبر الهدم والتدمير، حيث تهدم وتحطم كل ما من شأنه أن يضعفها كشرط أوّلي للبناء،على أن العمليتان -الهدم والبناء- تتفقان من حيث المبدأ والغاية، إذ المنطلق هو إرادة القوة، والغاية هي الحياة الجديدة، ولذلك فهي "من إبداعنا نحن، وأنه بإمكاننا أن نعيد إبداعها من جديد، ولا معنى للحياة سوى ذلك الذي نُضفِيه عليها من خلال إرادة القوة"[1]، إذن، فإرادة القوة هي سرّ الوجود، وهي في جوهره لا تبتغي غير خلق عالم جديد ،عالما أرضيا إنسانيا مفعما بالقوة والحيوية .

إن مبدأ فلسفة الحياة النيتشوية كما المنتهى، هو الإنسان الذي تفيض منه طاقات خلاّقة مبدعة، تكون بمثابة التربة التي يصنع منها حاضره ومستقبله، فمصيره بيده، وهو مُستمد من قدراته ذاتها "بيْد أن هذه القدرة الخلاّقة ليست شيئا إذا لم تتجسّد في الواقع"[2]، ذلك الواقع الحسي الذي يُعبّر عنه نيتشه بفيض الغرائز الحيوية، وذلك ما يجعل الإنسان يزداد تعلُّقا وارتباطا بكل ما هو أرضي إنساني من جهة،كما يزداد ابتعادا عن المثل والإلهيات من جهة أخرى.

إذن، يمكن للإنسان أن يخلق عالمه الجديد ،حيث تُبعث الحياة في الأرض التي كانت ميّتة من جديد، ولعل ذلك ما يتجلّى بوضوح في خطاب نيتشه: "لقد علّمتني ذاتي عزّة جديدة ...علّمتني ألاّ أخفي رأسي بعد الآن في رمال الأشياء السماوية،ب ل أرفعها رأسا عزيزة ترابية تبدع معنى الأرض"[3]

"أخلصوا للأرض، يا إخوتي بكل قوى فضائلكم ،لتكن محبّتكم الواهبة، ولتكن معرفتكم خادمتين لروح الأرض ،إنّني أطلب هذا متوسّلا"[4].

خاتمة:

إذا أردنا أن نلخص النيتشوية -على صعوبة الأمر- وجدنا أنها فلسفة توحي بصورة فيلسوف كانت نفسه قلقة، وثقافته رومانتيقية، وتجربته مؤلمة، فكان أن عرضها على أنها رسالة ووحي، وما أراد من خلال ذلك سوى تعليم الإنسانية كيف تستكشف ذاتها ؟ وكيف تؤمن بقدراتها وطاقاتها الخلاّقة على الإبداع والإنشاء؟ ولذلك كان التأويل النيتشوي لسؤال الحياة متميّزا، حيث تأسست فلسفة الحياة لديه على مقولة مركزية هي هي العلو بالحياة، فكانت المهمة

[1] عبد السلام علي جعفر، صفاء، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، دار المعرفة الجامعية، السويس، (د ط)، 1999، ص 280.
[2] بودو، بيير، نيتشه مفتتا،ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، (ط 1)،1996، ص 65.
[3] نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زراداشت، المرجع السابق، ف المأخوذون بالعالم الثاني، ص 23.
[4] نيتشه، فريدريك، المرجع نفسه، ص 23.

الأبدية للإنسان مهمّة ثنائية، حيث تبدأ بالهدم والتدمير الذي يُفضي إلى تقويض أركان كل ما آمنت به الإنسانية من أوثان، سواء تلك التي اخترعها العقل كالمثالية والعقلانية أو التي اخترعها الكهنة ورجال الدين كأخلاق الزهد والشفقة والتواضع ...إلخ، حتى إذا ما تمّ ذلك، شرع نيتشه في المهمة التالية وهي البناء والخلق، تلك العملية التي تستهدف قلب ألواح القيم وخلق قيم جديدة، على أن تكون هذه الأخيرة تعبيرا عن روحه المفعمة بالغرائز الحيوية وتجسيد لمدى تعلقه بقيم الأرض.

المصادر:

1. نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زارادشت، ترجمة: فليكس فارس، مطبعة جريدة النصر، الإسكندرية، (د ط)، 1938.
2. ـــــ، إنسان مفرط في إنسانيته، ج1، ترجمة: محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د ط)، 1998 .
3. ـــــ، هذا الإنسان، ترجمة: علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت، (د ط ت) .
4. ـــــ، العلم المرح ،ترجمة حسان بورقية ،محمد الناجي ،إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، (د ط).
5. ـــــ، نيتشه وإرادة القوة ،ترجمة: جمال مفرج، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010.

المراجع:

1. *Sarah ، kofman ، Nietzsche et la scène philosophique ، union générale d'édition ، paris ، 1975.*
2. *Sarah ، kofman ، Nietzsche et la métaphore ، édition Payot ، 1979 ، édition Galilée (s1) ، 1982.*

باللغة العربية:

1. بودو، بيير، نيتشه مفتّتا، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1996.
2. بدوي، عبد الرحمن، نيتشه، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 5، 1975.
3. بن دوخة، هشام، نيتشه والمتوسط، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013.
4. ولوز ،جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 2001.
5. ديورانت، ول، قصة الفلسفة،ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط 6، 1988.
6. عطية، أحمد عبد الحليم، فلسفة القيم –نماذج نيتشوية – دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2010.
7. عبد السلام علي جعفر، صفاء، محاولة جديدة لقراءة نيتشه، دار المعرفة الجامعية، السويس،(د ط)، 1999.
8. قادة، نبيهة، الفلسفة والتأويل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1988.
9. يسري، إبراهيم، فلسفة الأخلاق، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د ط)، 2007.

المعاجم والموسوعات:

1. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي،ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (دط)، 1982.
2. لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، مج 1، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001.